النمو المعرفي للمفسر وأثره في عملية التفسير

د.الجمعي شبايكي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة

الملخص:

حاولت من خلال هذه الدراسة: أن أبحث في تأثُّر المفسر بالعوامل الطبيعية الخارجية بما ينطبع على أخلاقه وثقافته وقدرته على التحصيل المعرفي، فتوصلت إلى عوامل أساسية أربعة: أصوله السلالية الجيدة، ثم العوامل البيئية المعتدلة، ثم التنشئة الاجتماعية السوية، ثم التعلم الصحيح، وهي من دون شك تمثل ذروة التكوين المعرفي عند الإنسان، ومنها ينتج العظماء الأخيار المتميزون.

هذه المسألة قد تحتاج لمزيد من الإثراء والمناقشة، ولقد تناولتها لنعلم البعد التأثيري للعوامل الخارجية على المفسر، ولماذا انحصر التفسير في جهات دون أخرى.

وقد أفضت هذه الدراسة إلى وضع ميزان معرفي يمكننا به التحقق من مستوى النمو المعرفي الذي قدمه كل مفسر، وذلك بالاعتماد على قاعدة البحث عن التوازن التي يثيرها المفسر عند كل مشكلة تعترضه في فهم الآيات القرآنية، وقد حدّدتُ معيارين اثنين لهذا الميزان: معيار التسجيل (النقل) ومعيار البحث عن التوازن (الإبداع) ومن خلال هذين المعيارين يمكن الحكم على أنواع التفاسير المختلفة، بمعرفة ما قدّمَته من نمو معرفي في ميدان التفسير.

Abstract:

Knowledge Accumulation of the interpreter of the Koran and its impact on the process of interpretation

This paper tries to investigation the impact of natural external factors influencing the interpreter of the holy Koran, which shape the morals, culture and his ability to accumulate knowledge. Eventually, four essential factors were determined as external ones: distinguished genealogical roots, stable environment, adequate social background, and appropriate education, which undoubtedly represents the ultimate way for knowledge buildup human can create, and hence how great distinguished characters are prepared.

This issue may need further and deeper discussion. The aim is to express the significant inducing dimension of external factors affecting on the interpreter and thus not to limit the interpretation of the holy Koran in certain extents and understandings.

This study has led to the establishment of a knowledge measurement scale, which allows us to evaluate the distinction of each holy Koran interpreter. It is based on the investigation of the elements involved in the interpreter approach of different ambiguities in trying to understand the holy Koran verses. Two criteria, have been proposed, first the large acquaintance with major interpretations of the holy Koran and second the originality in the interpretation by a balanced approach. Through these two criteria, we can make judgment on the quality of different interpretations.

إن السلوك الإنساني وما يخلص إليه من اتجاه معرفي يتحدد بعاملين اثنين، الأول: العوامل الطبيعية التي تنعكس على حياته ونشوئه، والثاني: طرق التعلم التي تكسبه المعرفة والمعلومات والإبداعات، وبالتالي فإن سلوكاته ومعارفه من هذه الناحية قابلة للتغيير والتعديل، وبعبارة أخرى: إن الاختلافات في المجموعة الإنسانية (ذات البيئة الواحدة أو المتشابهة) هي تعديلات وتغييرات توفرها طرق التعلم.

فنحن نتعلمُ كيف نتكلم، ونقرأ، ونفكر، ونستنتج، وننظم أفكارنا، ونتعلم كيف نحيى، وكيف نبقى، وكيف نحقق راحتنا، ونتعلم الاتجاهات والعادات والقيم، بل إننا نتعلم كل شيء من النطق بالكلام إلى الصعود للأجرام.

فالإنسان إذًا قابل للنمو معرفيا بالتعلم، وهذا هو جوهر الفرق بينه وبين غيره من المخلوقات؛ أن جعل الله له عقلا يفكر ويتعلم به: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33) ﴾ البقرة: ٣١ – ٣٣

وبقدر هذه الطاقة التعلُّمية يكون النمو المعرفي، ويتحقق وجود الإنسان التسخيري للمكونات المحيطة به، وبقدر ضعفها ينحدر الإنسان من بشريته المتميزة المتعالية إلى أن يصير كغيره من المخلوقات التي تؤثر فيها العوامل البيئية فتطلب التكيف معها*.

بهذا تبرز أهمية التعلم في تغيير اتجاهات الفرد وسلوكه.

عوامل النمو المعرفي:

كل نمو وتطور معرفي إنساني تساهم في ظهوره عوامل ثلاثة:

1. العامل البيئي (العوامل الطبيعية والاجتماعية)، وهي عوامل حتمية.
2. العامل الفسيولوجي.
3. عامل التعلم.

1. العامل البيئي:

ما من شك أن المفسر يتأثر بالعوامل الطبيعية الخارجية بما ينطبع على أخلاقه وثقافته وقدرته على التحصيل المعرفي، وقد قرأت حكاية قد تبدو عليها آثار الصنعة بارزة، إلا أنها صادقة المعنى. فقد روى ابن عبد البر عن أبي ليلى أنه قال: « قال لي عيسى بن موسى . وكان جائرا شديد العصبية:

من كان فقيه البصرة ؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن.

قال: ثم من ؟ قلت: محمد بن سيرين؛ قال: فما هما ؟ قلت: موليان.

قال: فمن كان فقيه مكة ؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار؛

---

* . هذا في حال أن يكون الإنسان جاهلا لا يعلم، فإذا عُلِّم وآثر الجهل على العلم فهو حينئذ أحس المخلوقات، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (171) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) ﴾ **الأعراف**: 171– 176.

قال: فما هؤلاء ؟ قلت: موالي.

قال: فمن فقهاء المدينة ؟ قلت: زيد بن أسلم، ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبي نجيح؛ قال: فما هؤلاء ؟ قلت: موالي.

فتغير لونه ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد؛ قال: فما كانا ؟ قلت: من الموالي.

فاربد وجهه. ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس، وابنه، وهمام بن منبه؛ قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي.

فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدا. ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني؛ قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى.

فازداد وجهه تربدا واسود اسودادا حتى خفته، ثم قال: فمن كان فقيه الشام ؟ قلت: مكحول؛ قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى.

فازداد تغيظا وحنقا، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران؛ قال؛ فما كان؟ قلت: مولى.

قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قال: فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عيينة وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم والشعبي؛ قال: فما كانا؟ قلت عربيان، قال: الله أكبر، وسكن جأشه" [1].

قد نلاحظ في هذه القصة نوعا من أثر الصنعة، لكنها واقعية، بل إن هذه الظاهرة الغريبة لا تقتصر على علم الفقه فقط، فكل العلوم تقريبا – ومن ضمنها علم التفسير – كان للعجم حظ كبير فيها، ونالت اهتمامهم أكثر من العرب، فالذين نقلوا التفسير عن الصحابة جلهم موالي، ومن ثمّ تلوّن التفسير على أيديهم وتعددت طرقه بحسب اهتماماتهم وانشغالاتهم.

ومع أن بعض العلماء قد أرجع السبب فقط إلى تفرغ الموالي للعلم دون العرب، إلا أن أبسط دراسة لهذه الظاهرة تظهر أكثر من ذلك، فإذا علمنا مثلا أن العرب كانوا يعتزون بالفروسية والشجاعة إلى درجة أنهم يتباهون ويتفاخرون بها، أدركنا أن ذلك كان حائلا قويا دون الجلوس إلى حلقات العلم والتحصيل.

2. العامل الفسيولوجي:

وهو عامل ذو أهمية عظيمة في تحصيل المعرفة، حيث ترتكز عليه عوامل النمو المعرفي الأخرى، ويدعى العلم الذي تستخدمه الأنثروبولوجيا للتعرف على هذا الجانب من التغيرات الإنسانية بعلم النفس الفسيولوجي LA PSYCHOLOGIE PHYSIOLOGIQUE، وهو علم يهتم بتأثير الأسس العضوية أو البيولوجية على السلوك، ويقع اهتمامه أساسا بثلاث وظائف: أعضاء الاستقبال الحسي، الجهاز العصبي، الغدد الصم[2]، ولذلك يحظى هذا العلم باهتمام علم النفس التربوي حيث يوظف نتائجه في دراساته لمعرفة مواطن النبوغ الإنساني وتطوير التحصيل المعرفي، أو

---

[1] . العقد الفريد: ابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، دار الكتب العلمية، . بيروت .، ط. الأولى: (1404هـ . 1983م)، ت: مفيد محمد قميحة، ج3/363 .364.

[2] . محاضرات في علم النفس الفسيولوجي: أحمد عبد الخالق، الناشر: دار المعرفة الجامعية، المصر . الاسكندرية . بدون: ط. (1986م)، ص3.

لتجاوز بعض المعوقات التي تعترض الإنسان من الناحية الفسيولوجية (كالإعاقات المختلفة).

هذه الأعضاء تشكل في مجملها أداة واحدة للإدراك، إذ يعتبر السمع والبصر وسائل الاتصال بين الإنسان وبين العالم الخارجي، فبالبصر يدرك الإنسان الأشياء، ويميز أشكالها وأحجامها وألوانها، وبالسمع يسمع الكلام وأصوات الموجودات، بل يستطيع معرفة الشيء ومكانه وبعده بواسطة السمع، وعن طريق الجهاز العصبي يستطيع أن ينظم الإنسان أفكاره وتصوراته اعتمادا على المعطيات التي يستقبلها من أعضاء الاستقبال الحسي فيحصل له التعلم والتثقيف.

يؤكد هذا التصور قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ **الإسراء**: 36. وقُدِّم السمع عن البصر لأهميته في عملية الإدراك، لكن هذا الإدراك يبقى مبعثرا وليس له معنى إلا بتدخل العقل الذي يعمل على تنظيم تلك المدركات والربط بينها، وفق نظم معرفية مسبقة(*).

أما الغدد الصماء فهي تعمل كوسائل ربط واتصال بين الأعضاء بما تفرزه من هورمونات، شأنها في ذلك شأن الأعصاب.

هذه هي حقيقة الفهم والمعرفة والعلم فسيولوجيا**.

والسؤال هنا: هل يمكن أن يكون المفسر أعمى أو أصماً أو على مستوى بسيط من الذكاء؟

من الواضح أن الإجابة ستكون بالنفي طبعا، والسبب أن عملية التفسير ليست من المهمات السهلة، لما يتطلبه هذا العمل من علوم مجتمعة وقدرة على التوظيف والاستنباط والبناء، ولعل هذا هو السبب الذي يجعل الكثير من المفسرين لا يقدمون على التفسير إلا بعد تردد طويل.

من أجل هذا كان المفسر أكمل الناس عضويا على الأقل فيما يتعلق بأعضاء المعرفة. وانظر وفتش وابحث، فلن تجد مفسرا أعمى ولا أصماً ولا ذا عقل عادي، فكلهم عرفوا إلى جانب سلامة الجسم، بالعقل الراجح، والذكاء الوقاد،

---

* . حسب المفسرين (كالزمخشري وابن عطية وابن حيان والطاهر بن عاشور وغيرهم ممن يعتد بهم في علم النحو واللغة من المفسرين) فإن الضمير في (عنه) يحتمل أن يعود على أحد أمرين:

1. يعود على ما ليس للإنسان به علم ويكون المعنى أن الله تعالى يسأل سمع الإنسان وبصره وفؤاده عما قال مما لا علم له به فيقع تكذيبه من جوارحه وفي ذلك خزي له.

ويستشكل هنا عود الضمير على غير مذكور، ولذلك لجؤوا لاستبدال ضمير المخاطب "ما ليس **لك**" بالإنسان "ما ليس للإنسان" ليحتمل المعنى المقدر، وهذا في نظري بعيد. ولو قال: "كل أولئك كان **عنك** مسؤولا" لصحّ.

2. يعود على "كلّ" التي هي للسّمع والبصر والفؤاد والمعنى أنّ الله تعالى يسأل الإنسان عمّا حواه سمعه وبصره وفؤاده فكأنه قال كلّ هذه كان الإنسان عنه مسؤولا، أي عما حصل لهؤلاء من الإدراكات ووقع منها من الخطأ فالتقدير عن أعمالها مسؤولا فهو على حذف مضاف.

وهذا أيضا يحتاج إلى تأمّل، فما وجه الالتفات عن ضمير المخاطب (تقفُ، لكَ) إلى ضمير الغائب (كان)، ولو قال: "كلّ أولئك **كُنتَ** عنه مسؤولا " لصحّ حمل هذا المعنى عليه، ولكنّ اختلاف الضمير دل على اختلاف المرجع.

لذلك قد تحتمل الآية معنى ثالثا وربما كان هو الصحيح: أن الضمير في (عنه) يعود على آخر معهود (الأقرب) وهو (العلم)، فيكون المعنى " ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك (أي: السمع والبصر والفؤاد) كان عن العلم مسؤولا" أي مطلوبا في تحصيله. والله أعلم.

** . يمكن التوسع في معرفة دور هذه الأعضاء في العلم والمعرفة بالرجوع إلى الكتب المختصة بعلم النفس الفسيولوجي.

والنباهة الزائدة، والبصيرة النافذة، حتى اجتمعت عندهم العلوم التي تؤهلهم لتفسير كلام الله عز وجل.

نعم قد يكون الأعمى فقيها، أو محدثا، أو أديبا، أو غير ذلك من العلوم السمعية، لكنه لن يكون مفسرا، وإن حصل أن وجد مفسر أعمى فلا يعدو أن كان مبصرا في أول عمره، لما يتطلّبه هذا العمل من الإلمام التام بعلوم العصر المختلفة وذلك حتى يمكن أن يعطي للقرآن بعده الحضاري الصحيح. ناهيك عن ضرورة إحاطته بقضايا العصر ومشكلاته وأزماته، لمعالجتها على ضوء هداية القرآن وتعاليمه، وقد قال الحكماء قديما "الحكم على الشيء فرع عن تصوره".

أما فيما يخص الأخرس فيتعذر عليه تحصيل العلوم جملة، فضلا عن علم التفسير.

هذا ما يقرره علم النفس الفسيولوجي ويؤكده الواقع، وهو نوع من الاستدلال بالأحوال الظاهرة على السلوك والأفكار، فكان بذلك علما عظيما، غزير الفائدة، لا تستغني عنه الدراسات الجادة لأحوال المبدعين، أو البحث في تنوع الأفكار المنتجة واختلافها.

3. عامل التعلم

يمكن تحديد مصادر المعرفة جزئيا، أو ما يعرفه إنسان ما، من خلال المنعكسات المادية والاجتماعية في بيئته، وبما يستنسخ جينيا من موروثات سلالية، غير أن هذين المصدرين لا يملكان الإجابة الكاملة عن السؤال الذي يطرح بإلحاح في هذا المجال؛ كيف يحدث النمو المعرفي عند الإنسان؟ وكيف تحدث الفوارق بين المجموعة الإنسانية ذات السلالة والبيئة الواحدة؟ وللإجابة عن هذا السؤال ظهرت عدة نظريات تتحدث عن التعلم أو التعليم باعتباره من أهم العوامل تأثيرا في النمو المعرفي للفرد، ولذلك أولاه الباحثون والدارسون عناية كبيرة، إيمانا منهم بأن الإنسان مهما كانت حالته وبيئته التي يعيش فيها، فمستواه المعرفي قابل للنمو والتطور بالتدريب والتعلم، وتحدثوا بإسهاب عن كيفية تطوير العقل البشري وبناء القدرات المختلفة اللازمة لتنمية مستواه المعرفي عبر مراحل نموه المختلفة، ونظرا لكثرة الآراء في هذا المجال وتباينها فإنني اخترت أهم تلك النظريات وأوسعها انتشارا في العصر الحديث، وهي نظرية النمو المعرفي لجون بياجيJean Piaget [*].

---

[*]. ولد جون بياجي في نوشاتل. سويسرا. في سنة 1896م، من أب مؤرخ، وأم شديدة التعلق بالبروتستانتية، اهتم بين السابعة والعاشرة من عمره بالميكانيك أولا، ثم بتربية العصافير، وبالمتجتمدات من العصور الجيولوجية الثانية والثالثة وبالأصداف البحرية، وفي الحادية عشر من عمره كتب مقالا عن عصفور الدوري وأرسله إلى إحدى المجلات في نوشاتل، وبعد سنة 1911م نشر عدة مقالات حول الصدفيات الكلسية.

لقد نشأ بياجي في بيئة علمية، وساعدته الأعمال التي قام بها على التفكير والبحث العلميين، وهكذا تكونت عنده دقة الملاحظة. في عمر الخامسة عشرة من عمره تقريبا تحصل على تعليم ديني مكثف جعله يقرر التوجه نحو الفلسفة، كما ذكر في مؤلفه (الحكمة وأوهام الفلسفة)، ومنها توصل إلى هدف أساسي هو التوفيق بين العلم والقيم الدينية، وهكذا بدأ بياجي دروسه الجامعية في نوشاتل سنة 1914م أي في سن الثامنة والعشرين واهتم كثيرا بالفلسفة والبيولوجيا، وبقي يألف ينشر عنها حتى سنة 1929م، لكن لا الفلسفة ولا البيولوجيا تؤدي إلى السيكولوجيا، إنما بياجي اتجه نحو السيكولوجيا صدفة بعد أن اعتمد موضوعه في أطروحة الدكتوراه في العلوم " مدخل إلى علم الرخويات في فاليه" التي نشرت سنة 1921م، حيث سافر إلى زوريخ وتابع دروسا في علم النفس، في هذه الأثناء اكتشف طريقة العمل المفضلة لديه وهي الطريقة العيادية في البحث وتتناول المحادثات التي تقام مع الأطفال. والتقى بعد ذلك بكثير من المفكرين والعلماء السيكولوجيين الذين كان لهم الأثر البالغ في توجهه نحو السيكولوجيا، ثم بعد ذلك ليتخصص في دراسة تفكير الطفل، وانطلاقا من سنة 1940م ترسخت حياة بياجي بالأعمال المتعددة، فهو مدير مختبر السيكولوجيا في جامعة لوزان، كما شغل مهمة مدير مساعد في مجلة السيكولوجيا السويسرية، وفي سنة

بعض المفاهيم الأساسية لنظرية بياجي في النمو المعرفي:

1 . يرى بياجي أن النمو المعرفي هو حصيلة التفاعل بين العوامل البيولوجية والعوامل البيئية، فالتعلم لا يحصل نتيجة ما يراه الإنسان، وإنما انطلاقا من تلك القدرة التي تنبع من الوراثة والتكوين البيولوجي (التوازن) والتي من شأنها أن تجعل الفرد ينظم المعلومات المتناثرة في نظام معرفي غير متناقض، ولولا هذه القدرة البيولوجية لما كان تباين الأشياء يعني له شيئا، ولما كان بمقدوره بناء معارفه وخبراته من محيطه.

2 . مفهوم الأبنية العقلية في نظرية النمو المعرفي عند بياجي:

هذا المفهوم هو جوهر نظريته؛ يفترض فيه أن المعارف أبنية عقلية، منظمة داخليا أو أنظمة ذات علاقة داخلية، هذه الأبنية أو التراكيب هي قواعد للتعامل مع المعلومات أو الأحداث أو الموجودات، وعن طريقها يتم تنظيم الأحداث بصورة إيجابية، والنمو المعرفي ما هو إلا تغير في هذه الأبنية، يعتمد هذا النمو على الخبرة*، فبالرغم من أن هذه الأبنية ذات أساس وراثي لكن البيئة المحيطة تساهم في تطورها وتبلورها، ووظيفة هذه الأبنية العقلية تنظيم البيئة المحيطة بالفرد لكي يستطيع فهمها ويمكنه القيام بعملية التكيف.

3 . مبدأ التوازن Equilibration: وهو في اعتقادي أبرز ما تميزت به نظرية بياجي في النمو المعرفي، حيث يعتبر محور وأصل كل تغير معرفي، وتبدأ عملية التوازن ببعض الاضطرابات فيشعر الإنسان أن هناك شيئا ما ليس على ما يرام، وهنا يبدو عليه ما يسمى بعدم التوازن أو الصراع بين ما هو متوقع وما يشاهده أمام ناظريه، وتبعا لهذا النوع من الاضطراب يحاول إيجاد بعض التنظيمات من أجل التخفيف من الانزعاج، ومن خلال أنماط أخرى من التنظيمات وبعد اكتساب العديد من الخبرات يبدأ في فهم سبب الانزعاج وحل المشكلة، وهنا يحصل ما أسماه بياجي بالتكيف الذي يقوم على أساس عمليتي التمثيل والملاءمة.

1952م أصبح أستاذ مادة علم النفس الطفل في السوربون، وفي السنة 1955م حصل من مؤسسة روكفلر على الأسس الضرورية لتأسيس الجهاز الوحيد في العالم لهذا النوع من الدراسات: المركز الإبستيمولوجي التكويني. واستمر في الأبحاث والمنشورات وكان إنتاجه غزيرا عدا المقالات في الصحف والمجلات، فظهر عنده حتى عام 1973م ثلاثون مجلدا أهمها: مدخل إلى الإبستيمولوجيا التكوينية في ثلاثة أجزاء، تكوين الفكرة الصدفة عند الولد، من منطق الولد إلى منطق المراهق، تكوين البنيات المنطقية الابتدائية، الميكانيزمات الإدراكية، حكمة الفلسفة وأوهامها، المنطق والمعرفة العلمية، البنيوية...الخ، وبعد حياة مليئة بالنشاط والمثابرة وافته المنية سنة 1980م، وقد أثرت ثروته الفكرية على الفكر العلمي وبشكل خاص على السيكولوجيا والأعمال التربوية.(مختصر من كتاب التطور المعرفي عند جان بياجه لموريس شربل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان . بيروت . ط. الأولى (1406هـ.1986م).

* . مثال ذلك: الطفلة التي تتنبأ بأن الماء الذي يصب في كأس قصير عريض سيصل إلى نفس المستوى إذا ما صب في كأس آخر طويل وضيق. وعندما تلاحظ هذه الطفلة أن مستوى الماء في الكأس الثاني أعلى منه في الكأس الأول فإنها تصاب بالانزعاج. وهذا ما نسميه بالاضطراب (Distrurbance) (Trouble) أو الصراع بين ما هو متوقع وما نشاهده أمام ناظرينا، فالاضطراب يطلق بعض التنظيمات (Regulation) من أجل العمل على تخفيف حدة الاضطراب، وفي المثل السابق فقد تعيد الفتاة صب الماء في الكأس العريض، وربما كان ذلك كي تتأكد من أنها لم تكن مخطئة في نظريتها إلى مستوى الماء الأصل، وفي ختام الأمر، من خلال أنماط أخرى من التنظيمات وبعد اكتساب العديد من الخبرات من الحياة اليومية فإن الفتاة تبدأ في فهم السبب الذي يجعل من مستوى الماء في الكأس الطويل الضيق أعلى منه في الكأس القصير المتسع. نظريات التعلم لجورج ام. غازدا، وريموند جى. كورسيني، سلسلة كتب عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت . عدد: 70 (أكتوبر 1983) . ترجمة علي حسين حجاج وعطية محمود هنا، ص284.

4 . يتم النمو المعرفي من خلال عمليتي التكيف Adaptation والتنظيم Organisation.

5 . يتضمن التكيف التوازن الذي يعد الأساس الجوهري للنمو المعرفي، ويحصل نتيجة التفاعل بين وظيفتين فرعيتين متكاملتين: التمثيل والمواءمة.

6 . تحدث عملية التكيف كالتالي: مع النمو يكتشف الفرد عدم كفاية معارفه لحل مشكلاته مما يؤدي إلى حالة من عدم التوازن Déséquilibration هذه الحالة، تدفع الفرد إلى السعي لاستعادة أو تحقيق التوازن Equilibration هذا يتم بإحدى طريقتين هما:

التمثيل (الاستيعاب) Assimilation: وفيه يستخدم الفرد ما يتوفر لديه من معارف بعد إعادة تنظيمها وكشف علاقات جديدة بين عناصرها، هذا الفهم لا يحدث إلا إذا كان المرء يستطيع بالفعل إحداث التكامل بين الخبرات الجديدة والخبرات السابقة لديه.

. المواءمة (التوافق) Accommodation: يشكل النصف الآخر من عملية التكيف؛ فقد يفشل الفرد في حل المشكلات باستخدام ما لديه من معارف حتى بعد إعادة تنظيمها، ولذا فإنه يحدث تغييرا جذريا في معارفه أو بمعنى آخر يكيف نفسه لحل المشكلة وهذا ما ندعوه الملاءمة، ويتم ذلك باستدخال أو اكتساب معارف جديدة تعتبر ضرورية لحل المشكلات المسببة للشعور بعدم التوازن.

هكذا يحصل النمو المعرفي من خلال مواجهة المشكلات والشعور بعدم التوازن ثم التكيف الذي يحقق التوازن المستمر.

7 . يعيد الفرد تنظيم معارفه من وقت إلى آخر بهدف زيادة فاعليتها ويتم ذلك عند التمثيل وعند استدخال معارف جديدة (المواءمة)، حيث تنتظم هذه المعارف في مجموعات يربطها عامل مشترك يسمى كل منها مجموعة معرفية Schème.

هذه المجموعات المعرفية تتغير كما وكيفا مع النمو البيولوجي[3].

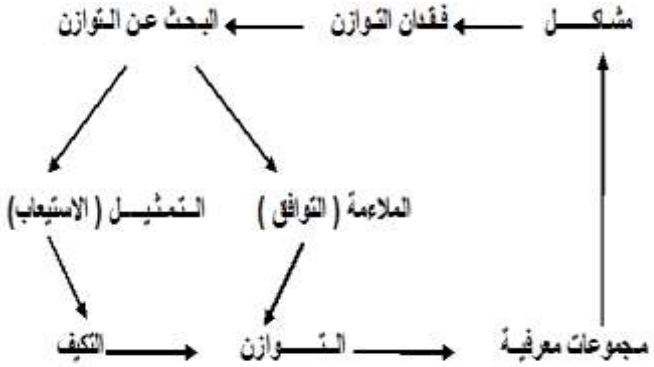

أثر التعلم في النمو المعرفي للمفسر:

[3] . ينظر في هذا الشأن: التطور المعرفي عند بياجه لـ: موريس شربل، والنظرية البنائية لبياجي: من كتاب نظريات التعلم لجورج ام. غازدا، وريموند جى. كورسينى، ، وكذلك

Extrait de Piaget J., Mes idées, [propos recueillis par R. Evans], Paris: Denoël/ Gonthier, 1977, 184p., coll. Médiations. (p. 67-78).

حسب نظرية بياجي السابقة فإن النمو المعرفي عند المفسر يعتمد أساسا على الأبنية العقلية الموروثة، هذه الأبنية تظهر وتنمو عبر المراحل المختلفة للنمو البيولوجي عند الفرد، ولا يحدث النمو بمجرد تسجيل الموجودات والأحداث، وإنما عن طريق التمثيل والمواءمة كما علمنا سابقا.

نعم... قد يمنحنا هذا المبدأ حكما قاسيا على التفسير المأثور باعتباره نوعا من النقل والتسجيل فقط لا غير، وبالتالي فهو لا يحقق أدنى مستوى من النمو المعرفي، ويجعل من التفسير الأكثر قبولا ذاك الذي تتجلى فيه الأبنية العقلية بشكل أكثر من غيره، سواء بتمثيل الخبرات السابقة وتنظيمها، أو عن طريق استدخال خبرات مستحدثة جديدة.

لكن تلك الأبنية لا تنمو مستقلة بشكل ذاتي، وإنما تتطور طرديا مع اللاتوازن، فكلما ازدادت الأبنية العقلية ازداد اللاتوازن، وأخذ الفرد في البحث عن التوازن حتى يحصل على التكيف، ومن ثم يتحقق له التوازن، وتنتج عن ذلك مجموعة معرفية تأخذ مكانها منتظمة ضمن المجموعات المعرفية الأخرى.

هذه العملية المعرفية تساهم بشكل مباشر وغير مباشر في نمو الأبنية العقلية التي كانت سببا فيها ابتداء.

ومن ثم إذا أردنا أن نقيس النمو المعرفي عند مفسر ما؛ يجب علينا أن ندرك حجم الأبنية العقلية التي بدت عنده أو ساهم في إبداعها، ومقدار اللاتوازن الذي أظهره من جانب، ومن جانب آخر مساهمته في تحقيق التوازن.

بهذا الشكل إذًا: يمكنني تمثّل هذا البناء العقلي الذي استدخله بياجي ضمن نظرية النمو المعرفي، للحكم على المفسر إن كان قد ساهم فعلا في تنمية التفسير معرفيا أم لا. وما حجم المجموعات المعرفية التي قدّمها لمنظومة التفسير.

وقد توضح الدراسة المقارنة التالية التي أجريتها بين ثلاثة تفاسير، حجم النمو المعرفي الذي قدمه كل مفسر في تفسيره لسورة الإخلاص، وفق المعيار التالي:

التسجيل: وهو اكتفاء المفسر واعتماده على مجرد النقل.

البحث عن التوازن: هو كلّ ما ساهم به المفسر من ترجيح، أو استنباط، أو إبداع...الخ.

1 . تفسير جامع البيان لابن جرير الطبري:

المعرفة المقدمة	نوعها
. سبب نزول السورة.	تسجيل
. ذكر الاختلاف في الرافع لـ (أحدٌ)، وكيفية قراءتها.	تسجيل+ بحث عن التوازن
. الاختلاف في تفسير (الصمدُ).	تسجيل+ بحث عن التوازن
. معنى (لم يلد ولم يولد).	بحث عن التوازن
. معنى (ولم يكن له كفوا أحد).	تسجيل
. الاختلاف في قراءة (كفوا).	تسجيل+ بحث عن التوازن

2 . تفسير الدر المنثور للسيوطي:

المعرفة المقدمة	نوعها
. سبب نزول السورة	تسجيل

. نقول كثيرة في فضل السورة	تسجيل

3 . تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي:

المعرفة المقدمة	نوعها
. في فضل السورة.	تسجيل
. في سبب نزولها.	تسجيل
. في أساميها وسبب اختصاصها بتلك الأسامي.	بحث عن التوازن
. بيان الأوجه التي عدلت بها السورة ثلث القرآن.	بحث عن التوازن
. الأوجه المختلفة في إعراب كلمات السورة.	تسجيل+ بحث عن التوازن
. اختلاف القراء وتوجيهه في قوله تعالى: (أحدٌ اللهُ).	بحث عن التوازن
. الألفاظ الثلاثة: (هو الله أحدٌ) ومقاماتها.	بحث عن التوازن
. تضمن (الله أحدٌ) لجميع صفات الله الإضافية والسلبية.	بحث عن التوازن
. تفسير قوله تعالى: (الصمد).	
. تفسير قوله تعالى: (الله الصمد).	تسجيل+ بحث عن التوازن
. سؤال وجواب: لما جاء أحد منكرا، وجاء الصمد معرفا؟	بحث عن التوازن
. سؤال وجواب: ما الفائدة في تكرير لفظة الله في قوله: (قل هو الله أحد، الله الصمد)؟	بحث عن التوازن
سؤالات وجوابات:	بحث عن التوازن
. لمَ قدم قدّم قوله: (لم يلد) على قوله (لم يولد)؟	
. لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال: (لم يلد) ولم يقل: لن يلد ؟	
. لم قال ههنا: (لم يلد) وقال في سورة بني إسرائيل: (ولم يتخذ ولدا)؟	بحث عن التوازن
. نفي كونه تعالى والداً ومولوداً، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا ؟	بحث عن التوازن
. هل في قوله تعالى: (لم يلد ولم يولد) فائدة أزيد من نفي الولدية ونفي المولودية ؟	بحث عن التوازن
. في قوله تعالى: (ولم يكن له كفؤا أحد): الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله ورد مقدماً في أفصح الكلام ؟	بحث عن التوازن
.كيف تقرأ (كفوا)؟	بحث عن التوازن

. مناسبة الآيات لبعضها البعض، وفوائد ترتيبها.	بحث عن التوازن
	تسجيل+ بحث عن التوازن
	بحث عن التوازن

فالنتيجة بالنسبة لتفسير الطبري كالتالي:

5 تسجيل و 4 بحث عن التوازن، أي بنسبة 55.55 % تسجيل، مقابل نمو معرفي بنسبة 44.44%.

. تفسير السيوطي:

2 تسجيل لا غير، أي بنسبة 100% تسجيل، فهو تفسير بالمأثور بأتم معنى الكلمة؛ إذ لم يحقق أي نمو معرفي في منظومة التفسير.

. تفسير الرازي:

5 تسجيل و18 بحث عن التوازن، أي حقق نموا معرفيا في التفسير بنسبة 78.26%.

2. النتيجة:

من خلال ما قدمته أستطيع القول: إن التكوين المعرفي للمفسر يبدأ من أصوله السلالية الجيدة، ثم العوامل البيئية المعتدلة، ثم التنشئة الاجتماعية السوية، ثم التعلم الصحيح.

هذه العوامل الأربعة لا شك أنها تمثل ذروة التكوين المعرفي عند الإنسان، ومنها ينتج العظماء الأخيار المتميزون، فإذا حدث أن انعدم أحد هذه العوامل أو قلَّ، أثر سلبا في التكوين المعرفي للفرد، وربما زاد توحشا بانعدامها حتى يكون أقرب إلى الحيوانية.

نعم إن بعض السلالات الإنسانية المتوغلة في الحر الشديد أو البرد الشديد قد تؤثر عليها بيئتها سلبا من ناحية التحصيل المعرفي، لكن –كما علمنا سابقا – ليس هذا هو العامل الوحيد في التحصيل المعرفي.

كما قد يقول قائل: إنّ الإسلام أقر المساواة بين الناس كلهم مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فلا فرق بين أسود وأبيض وأحمر، ولا بين عربي وأعجمي، ولا حتى بين امرأة ورجل إلا بالتقوى، فكيف نقرّ بهذا التفاضل؟

أقول: صحيح أن الإسلام جاء ليساوي بين الأجناس كلها دون أي تمييز أو تفرقة، لكن هذه المساواة هي باعتبار التشريع؛ أي أنهم سواسيةٌ كلهم أمام شريعة الله، فقوله – صلى الله عليه وسلم –: " وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"[4]. دالٌّ على أن المطلوب هو العدل بين الناس مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ومكانتهم، وأنهم أمام الشريعة وعند

[4] . صحيح البخاري: في كتاب الأنبياء، باب (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم) ج1282/3، ح(3288)، وكتاب المغازي، باب من شهد الفتح ج1566/4، ح 4053، وكتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد، ج2491/6، ح6406.

الله سواسية، لا يفضلُ أحد منهم على آخر إلا بالتقوى، لكن طلب المساواة بينهم في القدرات والإمكانات مستحيل، وغير ممكن لما ذكرته من عوامل تؤثر على الإنسان عضويا ومعرفيا.

هذا بديهي؛ فالطبيعة التي أثرت على الأعضاء حتى انحرفت عن شكلها الطبيعي، لابد وأن يكون لها أثر أيضا على دماغ الإنسان وتحصيله المعرفي، بل إن هذا الأثر إذا كان قد انطبع في جينات الفرد فإنه ربّما لا يزول إلا عن طريق التهجين بين الصفات المختلفة، وانظر إلى الإنسان الأسود مثلا فإنه لا يصير أبيضا بمجرد انتقاله إلى الأقاليم الباردة أو المعتدلة، والعكس كذلك صحيح.

ولعل هذا الطرح يفسر لنا سبب انحصار النبوة في بيت واحد، أو اختصاص بعض المناطق دون غيرها بالنبوّة، وهو السبب ذاته الذي يفسر لنا انتشار التفسير وانحصاره تقريبا في أقاليم دون أخرى، أو اختصاص علماء انحدروا من بيئات وأجناس محدّدة !!!

هذه المسألة الأنثروبولوجية تحتاج لمزيد من الإثراء والمناقشة، وقد تناولتها لنعلم البعد التأثيري للعوامل الخارجية على المفسر، ولماذا انحصر التفسير في جهات دون أخرى.

من جهة أخرى يمكننا استخلاص ميزان معرفي للتحقق من مستوى النمو المعرفي الذي قدمه كل مفسر، وذلك باللجوء إلى نظرية بياجي والاعتماد على قاعدة البحث عن التوازن التي يثيرها المفسر عند كل مشكلة تعترضه في فهم الآيات القرآنية، وقد حددت معيارين اثنين لهذا الميزان (معيار التسجيل (النقل) ومعيار البحث عن التوازن (الإبداع) ومن خلال هذين المعيارين يمكن الحكم على أنواع التفاسير المختلفة ومعرفة ما قدمَته من نمو معرفي في ميدان التفسير.

ثم إن العملية المعرفية لا تكون مكتملة إلا إذا حقق المفسر التوازن بعد إثارته للمشكلات التي تحدث اللاتوازن، وبالتالي يمكننا أيضا معرفة مدى النمو المعرفي الذي حققه كل مفسر من خلال الإحاطة بالمشكلات التي أثارها وحقق فيها التوازن.